ادوارد سعيد في مواجهة "شرقنة" الشرق

"عندما وجودالفرد يسود السلام وعند وجود اثنين ينشأ الصراع وعند وجود أكثر تبتدئ التحالفات" حول هذه المقولة تحوم أغلب النظريات المستندة الى فكرة "الصراع". ومن ذلك ما يعرف في علم الاجتماع بـ"نظرية الصراع" ومفادها أن عملية التغيير الاجتماعي تنجزأساسا من خلال "الصراع" بين مكونات المجتمع الواحد في سبيل حيازةالمزيد من المكاسب والمنافع .

أما عند فلاسفة الغرب فإن مقولة "الصراع" قد تشكل الخيط الناظملأ هم النظريات الفلسفية المعاصرة، ففي كتاب "أصل الأنواع" يؤكد" تشارلز داروين"أن: "التنازع من أجل البقاء نتيجة حتمية للمعدل العالي للزيادة الذي تميل إليه جميع الكائنات العضوية" و بذلك فهو يؤسس نظريته الشهيرة على مقولة "البقاء للأصلح" وبناء عليه فإن ما أسماه "الانتخاب الطبيعي" ليس في وسعه أن يتبلور إلا من خلال آلية الصراع التي ستكرس مبدأ البقاء للأقوى.

أما عند "هيقل" فيتخذ الصراع شكله المثالي في ما أسماه "جدلية السيد والعبد". فالسيد دائم السعي لنفي الآخر «العبد"، والعبد يسعى هو أيضا إلى إلغاء الآخر "السيد" وعبر عملية الصراع المرير بين الطرفين تتشكل ذاتي السيد والعبد في مواجهة كل منهما للآخر، فلا يمكن لأحدهما أن يكون هو ذاته من دون مغايرة الآخر له.

أما عند "كارل ماركس" فيتخذ الصراع شكله المادي الطبقي إذ هو يعتبر أن الصراع الطبقي المحرك الوحيد للتاريخ البشري فـ"تاريخكل مجتمع حتى يومنا هذا ، لم يكن سوى تاريخ صراعات طبقية. فالحر والعبد، و النبيل والعامي، و البارون الاقطاعي والقن، و المعلم والصانعباختصار المضطهدون و المضطهدون ، المتعارضون دوما، كانت بينهم حرب مستمرة مفتوحة تارة، مستترة طورا ، حرب تنتهيدائما إما بتحول ثوري لكامل المجتمع ، أو بانهيار الطبقتين المتصارعتين معا[21]".

ومن هنا نخلص الى أن صورة الآخر تتبلور في الفكر الغربي من خلال آلية الصراع الذي ينظر إليه على أنه محاولة دائمة لإثبات الذات بتهميش الآخر وإلغائه .

وفي ذات السياق ينظر الى العلاقة بين "الشرق" و"الغرب" على أنها تعبيرة من تعبيرات التدافع بين "الأنا " و"الآخر". إذ أن الغرب والشرق شهدا فصولا من التطاحن الظاهر والخفي على مدى تاريخ طويل من الصراع لاتزال وقائعه مستمرة الى يوم الناس هذا .

---

[1] داروين تشارل: :"اصل ألأنواع"، ترجمة مجدي محمود المليجي، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص139.

ماركس كارل و أنجلس فردريك :" البيان الشيوعي"، ترجمة حمّة الهمامي دار النشر للمغرب العربي ،تونس 1986 [2]،ص12.

ولا غرابة والحال تلك أن يتداخل الواقعي مع المتخيل في رسم صورة الشرق لدى الغربي و صورة الغرب لدى الشرقي. ولئن لم تتبلور صورة الغرب عند أهل الشرق الى حد الآن في شكل مدونة قائمة بذاتها قد تسمى افتراضا "الاستغراب" رغم محاولات حسن حنفي خاصة في كتابه مقدمة في علم الاستغراب" اذ يقول "علم الاستغراب هو فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر... والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي، بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس... مهمة علم الاستغراب هو القضاء على المركزية الأوربية، وبيان كيف أخذ الوعي الأوربي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث، داخل بيئته الحضارية الخاصة" رغم ذلك. فإن ماجره الغرب عن الشرق أسس ما سمي لاحقا "الاستشراق".

ويوم كتب "ألبار ميمي" كتابه " صورة المستعمر والمستعمر" لم يخف تطلعه إلى أن تشمل صورته كافة أشكال المظلومين في عصره، :"أكون كاذبا لو ادعيت أن هذه الصورة التي انتهيت إلى رسمها لأحد أهم وجوه الظم في عصرنا، كنت أهدف أن أرسم من خلالها شخصية المظلوم بشكل عام، لاشك أنه سيأتي اليوم الذي أرسم فيه هذه الصورة"[3].

ولئن لم يعش "ميمي" هو و "فرانس فانون" خاصة في كتابيه "معذبو الارض" و بشرة بيضاء اقنعة بيضاء" ليرسما تلك الصورة فإنهماقد أسلما المشعل للفلسطيني "لإدوارد سعيد" ليكمل المشوار بألمعية غير مسبوقة شهد بها أهل الاختصاص، ولئن اكتفى ألبار ميمي و"فانون"" بدراسة "الحقبة الاستعمارية فإن "لإدوارد سعيد" - كما يؤكد "ستيفن هاو" اليد المؤسسة لعلمين جديدين محدثين هما : دراسات ما بعد الاستعمار'Postcolonial Studies و كذلك نظرية الخطاب الاستعماري Colonial Discourse Theory ولعل اللبنة الأولى التي وضعها "سعيد" في هذا الاتجاه تتمثل في كتابه "الاستشراق". فسنة 1978 وضع "ادوارد سعيد" كتابه "الاستشراق المعرفة. السلطة. الإنشاء)"، و منذ ذلك التاريخ إلى يوم الناس هذا ظل ذلك الكتاب مدار أبحاث وتحليلات وتأويلات عديدة ومختلفة، فقد ملأ هذا المصف الدنيا و شغل الناس لحقبة غير قصيرة من الزمن .

ولقد انطلق "سعيد"- للوصول إلى أهدافه المعرفية - من افتراض يعبر عنه بقوله :"لقد بدأت بالافتراض التالي : " إن الشرق ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة"[4] ليصل إلى أن الشرق في الحقيقة والواقع ليس سوى"اختراعا غربيا "ولما كان لكل اختراع هدف إجرائي محدد فإن هدف الخطاب الاستشراق لا يعدو أن يكون تكريسا للاستقطاب الثنائي بين "المركز" و "المحيط "بتعبير سمير

---

[3] ميمي البار ،صورة المستعمر و المستعمر، دار الحقيقة، بيروت،،1980ص 10

4سعيد ادوارد ، الاستشراق المعرفة .السلطة. الإنشاء"،ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط 4، بيروت ،2003 ص40.

أبو ديب كمال ،مقدمة كتاب الاستشراق، الصفحة الأولى.

أمين ، إذ يستحيل الشرق مجرد أداة لخدمة مصالح الغرب وتكريس هيمنته على مقدرات القوى المستضعفة في العالم. وعند هذه النقطة، يتقاطع "الاستشراق" في طوره الثاني مع "الأنثروبولوجيا" في بداياتها الاستعمارية و مع الاستشراق ذاته في طوره الاول حين كانا أداة الاستعمار في فهم المستعمر من أجل تيسير السيطرة عليه.

ولعل طرافة كتاب "الاستشراق" تكمن في تلك الخلخلة العنيفة التي أحدثها في أساسيات المعرفة والثقافة الغربيتين حول الشرق أو الخطاب والإنشاء الغربيين عن الشرق. على أن تلك الخلخلة لم تكن من قبيل العمل الاعتباطي العشوائي بل كانت نتيجة صيرورة تحليلية بحثية عميقة، من أجل الوصول إلى مكامن القوة -بما هي غطرسة- في أعماق الخطاب الغربي عن الشرق، ومن هنا جاء العنوان الفرعي للكتاب :"المعرفة السلطة . الإنشاء " ، إنها إذن دراسة في "علاقات القوة التي تنسجها المعرفة متجسدة في الإنشاء الكتابي"،[5] ذلك الإنشاء الذي صيغ في حقبة تاريخية محددة من أجل أهداف منها ما هو معلن ومنها ما هو خاف، ومن المعلوم أن "ادوارد سعيد" ارتكز في كتاب "الاستشراق" على ما انتهى إليه الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو"حول المعرفة و السلطة، ومن هنا فقد كان "استشراق" "سعيد" بطريقة ما ضربا من ضروب تطبيق فلسفة "فوكو" من حيث هو "أركيولوجيا " المعرفة الغربية حول الشرق.

إن المعرفة أو بتعبير آخر "الحقيقة" ، وخاصة في عصرنا الحاضر لا تعدو أن تكون سلاحا ومن أحرزها فقد تمكن من أسباب القوة وبالنتيجة الفوز. ومن هنا تكمن أهمية "الاستشراق" من حيث هو محاولة -قد تكون متواضعة

وأولية غير أنها على الطريق الصحيح - في سبيل نزع السلاح عن المتحاربين، أو بصياغة أخرى إخراج المعرفة –الحقيقة - من دائرة الصراع بين الفرقاء (شرق –غرب) لتعود مشاعا بين جميع بني البشر ولتكون أداة من أدوات البناء لا معولا من معاول الخراب، و لتكون الثقافة في نهاية التحليل أداة من أدوات الحوار لا وقودا للصراع.

وتكمن طرافة "استشراق"ادوارد سعيد" من جهة أخرى في أنه يشكل أول محاولة جادة لدراسة خطاب الغرب عن الشرق، بقلم تخرج عن سلطة المكان فيما هي تتبنى الأمكنة جميعا، تلك الدراسة التي أثبتت بطريقة ألمعية أن "الاستشراق" ليس سوى محاولة لإثبات الذات بإلغاء الآخر.

إن المستشرق عندما تناول " الشرق" إنما هو في الحقيقة قد قصد"الغرب" فهو بوعي أو بدونه يحاول إثبات الهوية الغربية المتفوقة " الديمقراطية".." العقلانية".. القدمية"...مقابل "الآخر" الشرق" " المتخلف" .." المستبد".. الشبقي"... .وفي السياق ذاته يقول "ادوارد سعيد" :" إن الاستشراق كان في نهاية المطاف رؤية سياسية للواقع، رؤية روجت بنيتها للفرق بين المألوف (أوروبا، الغرب، "نحن") وبين الغريب (الشرق ،المشرق "هم")"[6]، ولعل ما سبق من كلام"سعيد" يشي بما هو أخطر من التنميط

---

[5]

[6] سعيد ادوارد ،الاستشراق، ص:74.

المستند إلى منطق القوة: "ان التمييط المستند إلى منطق عنصري يرتقي بعنصر آدمي وينحدر بآخر.
ولعل كل ما سبق يفسر ردود الفعل الحادة داخل أوساط "المستشرقين" الذين انقسموا بعد "استشراق" "سعيد" إلى فريقين : فريق أول تأثر إيجابا بالكتاب ودعا إلى مراجعة الفكر الاستشراقي، بل لقد أعلن أحدهم أنه لن يرضى بنعته بالمستشرق بعد اليوم. ، وفريق ثان تأثر سلبا بالكتاب فناصب صاحبه العداء الصريح ومنهم محرر القسم الأدبي بجريدة "التايمز" البريطانية "روبرت ايروين" (***Robert Irwin***) الذي ألف كتابا بعنوان" من أجل النهم إلي المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم" خصصه حصريا للرد على أطروحات "ادوارد سعيد" وكتابه بعد ثلاثين سنة من صدوره. أما متزعم هذا التيار فهو بلا منازع الأمريكي "برنار لويس" الذي يلتقي مع كل من "صاموئيلهانتنغتون" صاحب نظرية "صراع الحضارات" و"فرانسيس فوكوياما" القائل بـ" نهاية التاريخ" في اللحظة الآحادية للعالم التي ترتكز أساسا على الترويج " للإمبراطورية الأمريكية" المنتصرة. إن "برنار لويس" وهو يهاجم "ادوارد سعيد" في أكثر من موقع، يؤكد أنه الوريث الشرعي للاستشراقالاستعماري ، وليس أدل على ذلك من مساندته الصريحة للحرب على" العراق" .

إن تواصل السجال بكافة أشكاله حول كتاب "الاستشراق" ، يؤكد يقينا أن "ادوارد سعيد" قد توصل فعلا إلى زعزعة الفكر الاستشراقي من جذوره، غير أن ذلك لم يمر دون سوء فهم من شريحة معينة من القراء رأت في كتاب "الاستشراق" انتصارا من" ادوارد سعيد" للشرق وأهله وعلى رأسهم العرب والفلسطينيين وهو ما استوجب من "ادوارد سعيد" توضيحا يقول : "ومحاججتي وهي بعيدة أن تكون دفاعا عن العرب أو الإسلام، كما فهم البعض كتابي، نهضت على القول بأن العرب أو الإسلام لم يوجدا إلا "كجماعات تأويل" يسبغعليها التأويل وجودها" ، وأضاف بمناسبة تقديمه للترجمة العربية لكتابه " الثقافة والإمبريالية" :"صدر "الإستشراق"- في نسخته العربية – ليعزز مقام هذا الكتاب بوصفه إما دفاعا عن الإسلام أو هجوما عنيفا ضد الغرب وكلا الأمرين لا يمتان إلى ما كنت قد أنتويته أصلا من تأليف هذا الكتاب " ومن هنا بات من الواضح أن هدف "ادوارد سعيد" البحثي كان بعيدا عن أن يكون مجرد انحياز عاطفي للشرق وأهله، ومن ثمة دفاعا عنه، بل لقد كان من قبيل البحث الرصين، من أجل إثبات أن الشرق أو الغرب هما في نهاية التحليل من نسج الخيال الغربي ذاته، ومن هنا فقد سماها " الجغرافيا التخييلية". ولعلتلك الرؤية العلمية ذاتها هي التي أهلت كتاب "الاستشراق" إلى أن يكون بإجماع كافة الباحثين حجر أساس ولبنة أولى لعلم جديد قائم بذاته هو علم دراسات ما بعد الاستعمار.

ويعتبر أغلب النقاد كتاب " الثقافة والإمبريالية" تتمة لكتاب "الاستشراق" رغم الفاصل الزمني بينهما، إذ وسع "ادوارد سعيد" في كتابه الثاني من دائرة البحث عن آليات القوة في ثنايا الخطاب الغربي ليشمل أغلب المناطق التي امتد إليها الأخطبوط الإمبريالي الذي تمثله الإمبراطوريات الاستعمارية الثلاث البريطانية والفرنسية والأمريكية. ولعل في سيرة "ادوارد سعيد" الذاتية ما يعيننا على فهم سبب تركيزه على تلك الإمبراطوريات الاستعمارية دون غيرها مثل الإيطالية مثلا .

وينطلق "ادوارد سعيد" في تحليله للإنشاء أو السرد الذي حام حول الفضاء الإمبريالي من أن الواقع أو التاريخ لا وجود له خارج سياق السرديات أو المتخيل. ومن هنا فقد تسلح صاحب "الاستشراق" بجهاز مفهومي صارم
في سبيل ماسماها القراءة " المفككة للإستعمار (Decolonization)، يقول "سعيد""إن طريقتي هي أن أركز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها

أولا كنتاج عظيم للخيال، ثم أن أجلي كونها جزءا من الثقافة والإمبريالية". وهذه الطريقة تعتمد على مفهوم أساسي عند "ادوارد سعيد" وهو القراءة الطباقية ، وهو مفهوم مستلهم من الطباق الموسيقي، ويرتكز أساسا على تعدد أوجه التحليل للضوص: " حين نعود بالنظر إلى السجل الإمبريالي نأخذ بقراءته من جديد، لا واحديا، بل طباقيا بوعي متباين للتاريخ الحواضري الذي يتم سرده، ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها ومعها الإنشاء المسيطر". أما المفهوم الثاني الذي اعتمده "سعيد"، فهو مفهوم " الدنيوية" وهو أن ينظر إلى الض من جهة كونه نتاجا بشريا دنيويا صرفا، لا علاقة له بأي سلطة ماورائية .

ولقد شكلت تلك المفاهيم المنطلق الذي اعتمده "ادوارد سعيد" للولوج إلى السرديات، سواء تلك التي ألفها من ينتمي إلى فضاء المستعمر، أو كذلك من حام حول فضاء المستعمر. وعند هذه النقطة يختلف كتاب" الثقافة والإمبريالية " عن كتاب "الاستشراق"، فلقد درس الكتاب الأول الخطاب الإمبريالي والخطاب المقاوم للإمبريالية،:" إن القراءة الطباقية يجب أن تدخل في حسابها كلتا العمليتين : العملية الإمبريالية وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للضوص لتشمل ما تم ذات يوم إقصاؤه بالقوة"[7]. ويعرف "ادوارد سعيد" الإمبريالية" بقوله :" تعني الإمبريالية كما سأستخدم الكلمة هنا الممارسة والنظرية ووجهات النظر التي يملكها مركز حواضري مسيطر يحكم بقعة من الأرض قصية "[8] ، و لمزيد التفسير يقدم"سعيد" تعريفا "لمايكل دويل" :"الإمبريالية هي ببساطة العملية أو السياسة اللتان بهما يتم تأسيس الإمبراطورية وإدامتها والحفاظ عليها"[9]. يرتكز مشروع "سعيد" في " الثقافة والإمبريالية" إذن على محاول نسف الأسس التي ينهض عليها التفكير العنصري ومن ثم الممارسة العنصرية عبر دراسته كما هائلا من الضوص واثبات أن مقولة العرق المتفوق هي وليدة الثقافة المسيطرة. إن الرجل الأبيض الذي طالت يداه أغلب أقطار الأرض، كان في حاجة ماسة لمسوغات فكرية وإيديولوجية تكرس سيطرته وتمنحها " الشرعية" ، ومن ثم جاء الخطاب الإمبريالي ليمد يد العون للآلة العسكرية، مثلما كان شأن "الأنثروبولوجيا" الوليدة التي كانت أداة الاستعمار في فهم المستعمر ومن ثم ترويضه.

---

[7] سعيد ادوارد،" الثقافة والامبريالية "،ترجمة كمال أبو ديب ،دار الآداب ،بيروت ، ص66

[8] المرجع السابق، ص80

[9] نفسه ,ص 374.

ولئن انتهت الحقبة الاستعمارية بعودة الجيوش الغازية إلى ثكناتها في بلدانها الأصلية، فإنها تواصت في الحقبة المعاصرة على المستوى العملي بأشكال قد تختلف عن سابقاتها، ولكنها تؤدي دائما إلى نفس النتيجة وهي تكريس المركزية الأوروبية وبالنتيجة إدامة السيطرة والنفوذ الغربيين على كل من هو مستضعف في العالم. وما حربا الخليج الأولى والثانية وحرب " الولايات المتحدة الأمريكية" على ما سمي بالإرهاب إلا عود على بدء، أي رجوع إلى الأساليب الاستعمارية العسكرية المباشرة. ويؤكد "ادوارد سعيد" هذا المنحى في الفصل الأخير من " الثقافة والإمبريالية" الموسوم :" التحرر من السيطرة في المستقبل"، إذ يذهب إلى أن القرن الأمريكي- حسب عبارته- "إنما يختلف عما سماه بالإمبريالية التقليدية في إفادته من الثقافة التي صارت تنهل مما تشهده وسائل الاتصال من تطور هائل يقول "سعيد":" فيما كانت الثقافة الأوروبية قبل قرن من الزمان ترتبط بحضور الرجل الأبيض بل بحضوره الفيزيائي الطاغي طغيانا مباشرا، فإنا الآن نشهد إضافة إلى ذلك حضورا لوسائل إعلام عالمية تدس نفسها في مستوى ما تحت الإدراك الواعي"[10]

.

ونختم بالشعر في سياق الخطابوالخطاب المضاد :

الشرق شرق و الغرب غرب ..ولن يلتقيا الشاعر الإنجليزي "كيبلينغ"

ففي السفر الحر بين الثقافات

قد يجد الباحثون عن الجوهر البشري

مقاعد كافية للجميع.

هنا هامش يتقدم. أو مركز يتراجع

لا الشرق شرق تملما

ولا الغرب غرب تملما

[10] نفسه ,ص 80.

لأن الهوية مفتوحة للتعدد

لا قلعة أو خنادق/

محمود درويش : طباق

الى ادوارد سعيد

محمد كشت